UAD Universitas Ahmad Dahlan

Insyirah: Jurnal Ilmu Bahasa Arab dan Studi Islam
Vol. 5, No. 2, December 2022, 160-174

insyirah

بلاغة السخرية وفن إدارة الأزمات

The Rhetoric of Irony and The Art of Management Crisis

[1, a)] Samira Maslouhi

Email : [1] samira.maslouhi@gmail.com
[a)] Sultan Moulay Slimane University Beni Mellal, Morocco

ARTICLE INFO

Article history
Received: 31 December 2021
Revised: 4 March 2022
Accepted: 28 December 2022

Keywords
The Retoric of Irony,
Art,
Management Crisis.

ABSTRACT

Analyzing and studying irony style in the daily life of individuals is of great importance due to the diversity of its topics and their intertwining, especially with the great influx and popularity caused by the spread of the Corona pandemic in a torrent of satirical discourse, such as jokes, funny video clips, cartoons, and others. In an attempt to address the state of panic and exaggeration that accompanied the emergence of the epidemic and the parallel discourse in the media, it is not an ordinary discourse produced by one individual but rather a cumulative discourse of social memory extended over time, in which the past overlaps with the present, thus forming a vessel for a cultural heritage that distinguishes a society and predicts its representations and opinions. And his attitudes towards different topics in his daily life or specific topics (educational, political, religious-, or some social phenomena. Irony in all its forms has been very popular. It has been popular with the public that every person has become a media device in itself, so it is enough to broadcast and publish pictures of senior officials wearing masks on their faces and protective gloves on their hands or while they are in quarantine to launch a barrage of satirical political jokes that It is not devoid of deep connotations that indicate a high level of social awareness and political criticism, dispelling many gaps and almost fading the existing gap between the top and the base.

This is an open access article under the CC–BY-SA license.

مقدمة

الخوف دائم وفي كل مكان، العالم تعمه فوضى عارمة. لا شيء يرى في الأفق سوى طيف المقابر التي دفنت بها أحلامنا المعلقة وتكسرت على أعتابها نسائم الجنائن المحترقة بلوعة الشوق لأرواح غادرت قبل الأوان. هكذا استفاق العالم في العشرية الثانية من القرن العشرين على وقع زمن مليء بالأخطار والتهديدات، بات فيه الإنسان يشكل خطرا على أخيه الإنسان ومجرد الاقتراب منه قد يسبب له الموت والهلاك، بل أكثر

من ذلك أصبحت ذات الإنسان وحتى ملابسه، وحاجياته، وكل ما يحيط به يشكل مصدر تهديد وخطر عليه .

حالة من الرعب والهلع أصبح البحث عن الخلاص منها، المنفذ الوحيد لاسترجاع القليل من الأمن والأمان؛ وبما أنه لا حدود لقدرة الإنسان على الابتكار، فقد سعى إلى التحايل على الزمن من أجل التخفيف من حدة القلق ومصارعته من أجل البقاء. ولعل أكثر إبداعاته فاعلية هي رفضه نهائية الموت ، ومحاولة السيطرة على الخوف بالسخرية منه، " فالموت مخيف بسبب تلك الصفة المختلفة عن جميع الصفات الأخرى. الموت سر يستعصي على الأحياء فهمه.

مما لا شك فيه أن المسألة الوجودية تناولتها مقاربات فلسفية وسوسيولوجية قديمة وجديدة؛ إذ صاحب التفكير في مسألة الوجود (الحياة والموت) حدوث تغيرات في الوضع الطبيعي للحياة، فمنذ ظهور الأوبئة والامراض المستعصية والظواهر الطبيعية الخارقة أو ما يسمى بثورة الطبيعة طرح الإنسان تساؤلات كبرى عن قيمة وجوده الإنساني ومدى ضعفه أمام قوى الطبيعة؛ ومما لا شك فيه أن التقدم والتطور الذي سعى الإنسان جاهدا إلى تحقيقهما خلال دورة حياته المتجددة على كوكب الأرض ، قد وقفا عاجزين أمام تكرار مثل هذه الظواهر، سواء الطبيعية منها أو المصطنعة، لتتزعزع بذلك قناعاته الوجودية حول قوته الزائفة وعجزه أمام تحدي الطبيعة. ولعل أصعب اختبار واجهته البشرية جمعاء هو تفشي وباء كورونا العابر للحدود، الذي فرض سيطرته على العالم بأسره وأرغمه على الدخول إلى جحره للاحتماء منه.

في ظل هذ الوضع المتوتر أصبحت الأسئلة الوجودية أسئلة اجتماعية ، فكيف تعاملت المجتمعات ومن خلالها الأفراد مع وضعية الأزمة خلال فترة الوباء وكيف واجهتها؟ وما هي السبل الكفيلة التي تبنتها من أجل محاربة الخوف ومقاومة شبح الموت من أجل البقاء؟

منهج البحث

هذا البحث هو بحث نوعي ومكتبتي بطريقة وصفية. تأتي البيانات الواردة في هذا البحث من الوثائق

المكتوبة والكتب التقليدية والمعاصرة المتعلقة بموضوع البحث. واستخدم الباحث طريقة تحليل البيانات الوصفية في هذا البحث لاكتشاف نظرات في بلاغة السخرية وفن إدارة الأزمات.

نتائج البحث

أ. خطاب الأزمة وسبل التصدي للوباء

لقد نجح فيروس كورونا في تعميق النقاش المجتمعي حول المصير الإنساني وحتمية الموت بشكل مباشر، لكن بشكل آخر غير مباشر عمق النقاش حول ضرورة التضامن والتعاون من أجل استمرار الحياة. فأن أحيا يعني أن يحيا الآخر ولكي أبقى على قيد الحياة يجب أن أمد يد العون للآخر ليعيش حتى لا يصيبني بالعدوى؛ فمسألة الحياة والموت أصبحت مسألة معقدة تربط الأفراد والشعوب ببعضها، كما تربط الإنسان بمصدر وجوده(خالقه- إله- طبيعة) ؛، الشيء الذي ينسف أسس الفردانية ويظهر زيف مبادئها أمام ما يفرضه الوضع الحالي من تكتل وتضافر الجهود لمحاربة الوباء وإشاعة الأمن والسلام عبر العالم.

ويمكن التمييز هنا بين بين قسمين من المجتمعات قسم يستحضر العلم و البحث العلمي و العمل الجاد ويشجع على الابتكار والإبداع كوسيلة غايتها النجاة لعدم خلخلة نظام الوجود واستمراريته، وبين مجتمعات يسيطر فيها البعد الاتكالي مستسلمة في ذلك للجانب السلبي للبعد الديني كآلية لتماهي الذات مع أزمتها والرضوخ لأمر القضاء والقدر محاولة بذلك إقناع ذاتها باستراتيجية دفاعية ترسخ الاعتقاد بحتمية فناء الجسد وأهمية التركيز على الروح للبحث عن سعادة وهمية أو مؤجلة... قد تكون ناجحة بالنسبة للذات لإعاقتها مبدأ النهاية.

إن بحث الإنسان عن منفذ لتجاوز أزماته الصحية والنفسية والاجتماعية يدخل في صلب مقاومته لشبح الفناء الذي يطارده، لذلك فهو يسعى إلى استعادة توازنه النفسي ليستطيع الاستمرار. وقد اعتنقت العديد من الفلسفات منها الفلسفة الديكارتية والإسلامية على سبيل المثال فكرة مادية الجسم وفنائه مقابل خلود الروح، الشيء الذي يبرهن على أهمية البعد الروحي والديني في تجاوز الإنسان لأزماته الصحية والاجتماعية والنفسية، لكن ما لاحظناه في تتبعنا لأسلوب مواجهة الجماهير للأزمات خصوصا الصحية منها تُظهر التخبط العشوائي في منظومة القيم الدينية و الافتقار إلى منطق روحي ثابت؛ ولعل ما أفرزته جائحة كورونا أو كوفيد-19 من سيل وافر للخطابات اليومية للجماهير كاستجابة مباشرة بطرق واعية أو

10.26555/insyirah.v5i2.5481

ملتوية للأحداث التي تعيشها، تفصح بتعبيرات لفظية أو أخرى عن القلق والخوف الذي يشعر به الإنسان وكيفية مقاومته، مما يذكرنا كذوات بوضعنا الوجودي القلق في هذا العالم .

لقد شكلت جائحة كورونا محطة حاسمة في تاريخ البشرية في العصر الحديث، لما خلفته من تأثيرات على سير مختلف القطاعات الحيوية على الصعيد العالمي. وللتخفيف من تداعياتها اعتمدت الدول العربية على التوعية الدينية والثقافية عبر مختلف وسائل الاتصال التقليدية والحديثة، خصوصا في ظل عجز المختبرات العلمية على إيجاد لقاح فعال يحد من انتشارها، وذلك عن طريق التحسيس بمخاطر هذا الوباء وانعكاساته السلبية على الحياة العامة، لذا فقد سارعت إلى تبني بعض الاستراتيجيات التي تروم الحد من تداعيات هاته الجائحة، منها إغلاق حدودها البرية والجوية والبحرية، وفرض الحجر الصحي الشامل أو الجزئي لمحاصرة الوباء ومنع تفشيه.

وقد اعتمد بلدنا المغرب سيرا على نهج باقي دول العالم على مجموعة من الحملات التوعوية الدينية والثقافية(حوارات- خطب- برامج- وصلات إشهارية...) لحث المواطنين على الالتزام بحزمة الإجراءات والتدابير المتخذة للحد من تداعيات جائحة كوفيد 19 مستدلة على ذلك بآيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية لإضفاء طابع الشرعية الدينية عليها وضمان تقبلها من قبل المواطنين. لكن الملاحظ أن هذه الحملات التوعوية (خاصة الإقناعية منها) تواجه تحديات كبيرة وصعوبات بالغة في تحقيق وبلوغ أهدافها المرجوة خصوصا في مجتمعات الدول النامية، نظرا للهوة الحاصلة بين مزيج الحضارتين المادية والمعنوية التي تعيش فيهما؛ فالتغيير غير المتكافئ الذي انخرطت فيه هذه الدول جعلها تعيش تناقضا على مستوى الواقع الذي تعيش فيه بما يحتويه فيما يتعلق بالنواحي المادية من(مبان، ومنشآت صناعية، واستعمال للوسائل التكنولوجية الحديثة، ...)، لم يواكبه تقدم ثقافي مماثل على مستوى الوعي الجمعي(عادات – تقاليد – سلوكات...)، ولا على مستوى سياسة التخطيط والتدبير(الهشاشة الاجتماعية – ارتفاع نسبة الامية- الفوارق الاجتماعية...)، لكي يساير هذه التحولات.

فحدوث التطور المعنوي أو الانخراط في مسلسل التحديث يحتاج إلى تغيير على المستوى الفكري والبنية الثقافية ، وهذا الأمر يقتضي سياسة تدبيرية وجهود جبارة تنخرط فيها جميع القوى الفاعلة في المجتمع من سياسيين ومختصين في الاقتصاد وإعداد وتطوير البرامج التعليمية وبرامج التوعية ووسائل الإعلام وغيرها.

وحسب استقرائنا للظاهرة فإن هذا الخلل أو عدم التوازن الحضاري جعل هذه الحملات التحسيسية التي تهدف إلى التوعية بخطورة الجائحة وضرورة الانخراط المسؤول والواعي للأفراد في جسد

المجتمع والتماهي فيه ككيان واحد لتسريع وتيرة الخروج من الأزمة، تواجه تحديات كبيرة وصعوبات بالغة تقلل من فرص نجاحها إن لم نقل تساهم في فشلها، وهذا راجع بالأساس إلى عدة أسباب يأتي في مقدمتها عدم اهتمام الجمهور برسائل هذه الحملات التوعوية ، وأخذها على سبيل الاستهتار وعدم الاقتناع بما يروج من أخبار، مما يدفعه للسخرية بها ومنها وإصراره وعناده على التمسك بالسلوك القديم، بل في بعض الأحيان رفض مبدأ التغيير و انعدام الرغبة فيه.

ب. في معنى السخرية

لقد عُرِّفت السخرية تعريفات متعددة بتعدد المرجعيات النظرية المحال عليها، وقد تراوحت هذه المنظورات بين تحديدات متباعدة تعكس تعدد مفهوم السخرية وتحولاته منذ نشأته الأولى في حقل الفلسفة الإغريقية وصولا إلى اعتبارها تقنية خطابية ذات بعد تواصلي مفارق يميز بين المتكلم والمتلفظ في نظرية تعدد الأصوات Théorie Polyphonique أو بين المتكلم وكلامه في نظرية الصدى أو الاسترجاع1 L'ironie comme mention (أوسوالد، 1984)، أو احتمال نفس الملفوظ للإثبات و النفي للحجة والحجة المضادة من خلال إعلاء القيمة الحجاجية للسخرية (بريدونير، 1981).

وإذا كان من غير الجائز اختزال مفهوم السخرية في تحديد واحد، فإن ما يهمنا في هذا المقام هو الاتجاه الذي اهتم به البحث؛ أي السخرية في خطاب الوباء في بعدها التواصلي الحجاجي، مما يسمح باستخراج بعض العناصر الثابتة لهذه الظاهرة، مثل البعد الانزياحي للذات عن ملفوظاتها، والموقف المفارق من المجتمع ونظام القيم السائدة، والخلفية التقويمية لحقيقة الأشياء والأشخاص، واللعب اللامحدود بتشكلات المبنى والمعنى، دون أن يمنعنا ذلك من أن نتتبع المحطات التي مربها هذا المفهوم في تاريخ سيرورته الزمنية بشكل سريع حتى يتبين لنا قدرُ الحمولة التي شُحِن بها.

ج. إشكال المفهوم و أنواعه

يتراوح مفهوم السخرية في البلاغة العربية (العمري، 2012) بين الهزل والاستهزاء، حيث استوعب المفهومُ كلَّ المجال الذي تغطيه المصطلحات العربية التالية: الهزل، الاستهزاء، التهكم، الهجاء في معرض المدح، التعريض، التوجيه، القول بالموجب، أسلوب الحكيم، الاستخدام، نفي الشيء بإيجابه، الإبهام (عند بعض البلاغيين)، هذا فضلا عن كلمة سخرية نفسها، كلها كانت تصف تجليات عديدة "للهزل" باعتباره

10.26555/insyirah.v5i2.5481

الخلفيةَ الفلسفية للسخرية البلاغية و تدور حول نفس المعنى لكن بدرجات متفاوتة تزيد أو تنقص حسب السياق،

فالسخرية تظهر أحيانا بمظهر الجد وأحيانا بمظهر الهزل. وإن تأرجحها بين قطبي الجد والهزل هو ما يجعلها عصية على التحديد المفاهيمي، فهناك من يُؤْثِر استعمال مصطلح الهزلي على السخرية فيدخلها بذلك في قالب الضحك والمضحك.

وقد حاول فلاسفة وبلاغيون تفسير طبيعة الضحك الساخر (العمري، 2012) وهم بذلك إنما يسعون لتفسير آلية اشتغال السخرية، أو مستوى منها: مستوى الطُّرْفة والهزل، أي ما دون مستوى المرارة والنقد شبه الصريح، كماحاول بعض الباحثين مجتهدين التمييز بين دلالات هذه الألفاظ والوقوف على خصوصية كل واحد منها، كما فعل "شوقي ضيف" الذي اعتبر الفكاهة جنسا والسخرية والدعابة والنكتة والكاريكاتير وغيرها أنواعاً، وأن التهكم واللَّذْعَ من ألوان السخرية. يقول: " والسخرية أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر. وهي لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم، وهي حينئذ تكون لذعا خالصا، وقد تستخدم في رِقَّةٍ وحينئذ تكون تَهَكُّماً، إذ يلمس صاحبها شخصا لمسا رقيقا...وعلى ذلك فاللذع والتهكم لونان من ألوان السخرية" (العمري، 2012)، إنها كما يقول الهوال:" ترقى بالفكاهة إلى المستوى الأكثرِ ذكاءً ولباقة، فتجعل لها معنى، وتعطيها قدرة خاصة على أن يكون لها هدف، وأن تخدم هذا الهدف، وأن تحتال لتحقيقه، وأن تكون لها إمكانية التأثير وهي لذلك تتخذ مادتها من العيوب والنقائص التي لا تطيق لها وجودا، ولا ترضى بأن تتركها تعيش في سلام وأمان، دون أن تَدُق عليها دَقّاً خفيفا أو ثقيلا، حتى تنبه إليها أو تنبه فيها عواملَ المقاومة وتثير الرغبةَ في الانتصار عليها".

والسخرية كفكاهة تعتبر أرقى أنواع الفكاهة، لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر. ولذلك اتخذ منها الفلاسفة والأدباء أداةً يستخدمونها في دقة لبيان رأيهم في الخرافات السائدة أو المذاهب التي يختلفون معها ويهزؤون بها، كما لجأ إليها رجال السياسة في التَّنَدُّر بخصومهم وفي هذه الحالة تكون أشبه باللَّذْع الخالص الذي يكون جارحا أحيانا. فالممارسة الساخرة هي تذمر واضح من حالة سيئة أو مقيَّمة كذلك،

وقد حاول محمد العمري أن يضع حدودا للنطاق الذي من الممكن أن توجد فيه السخرية، مشخصا بذلك موقعَ المفهوم والاضطرابَ الذي يعانيه من خلال تأرجحه ذهابا وإيابا بين مكونين أساسين في الخطاب الساخر هما:

- المكون الانفعالي أو التأثيري الذي يتجلى في الاستخفاف المشتمل على الضحك أو الرغبة فيه، وعلى الاستهجان أو مجرد الإحساس بالمفارقة .
- المكون البنائي أو الدلالي أو البلاغي الذي يتجسد من خلال المفارقة الدلالية وما يترتب عنها من غموض والتباس.

ويمتد المكون الدلالي الذي من أقصى درجات الوضوح إلى أقصى درجات الغموض والمفارقة، في حين يمتد المكون الانفعالي من الضحك الخالص إلى الاشمئزاز الذي تظهر معه نفس الملامح المصاحبة للضحك؛ حيث يمكن لدائرة السخرية أن تتسع في اتجاه هذا الطرف أو ذاك، فتكون أكثر غموضا أو أكثر وضوحا، أو أميل إلى الإضحاك، أو أميل إلى إثارة الاشمئزاز و الاستهجان.

د. السخرية بين الجد والهزل

لقد حاول العديد من الفلاسفة والبلاغيين تفسير آلية اشتغال السخرية من خلال ربطها بمستوى الطُّرْفة والهزل، أي ما دون مستوى المرارةِ والنقد شبهِ الصريح، ومن أشهر هذه المحاولاتِ ما بذله "برجسون" في كتابه الضحك، إذ لم يتحدث عن الضحك بشكل مطلق، في بعديه الفيزيولوجي والنفسي، وإنما تناول جانبا من بعده الاجتماعي الذي ينطوي على نقد مظهر من مظاهر التَّألّي (التشبه بالآلة) والتحجر في سلوك الإنسان اللغوي والحركي الناتج عن تحجر فكري أو جسدي، فيكون الضحك بهذا الاعتبار احتجاجا أو عقابا لذلك الواقع غير المرن. فوظيفة الضحك عنده هي القيام بدور المقوم الاجتماعي فهو وسيلة فعالة لتصحيح وتعديل تلك الآيات الضارة التي تنطوي عليها حياتنا الاجتماعية العادية بإظهارها على ما فيها من سخف وعبث وتفاهة.

وفي الاتجاه نفسه حاول كوهين تفسير فاعلية السخرية في إطار دراسته للهزلي والشعري، وذلك من خلال محاولته إيجادَ مجال للتكامل بين نظريتين كبيرتين هما نظرية التردي ونظرية التناقض، وهما نظريتان اعتُمدتا من قبل دارسي السخرية قديما وحديثا، حيث يقول في هذا الإطار مفسرا الهزل حسب نظرية التردي: "الهزلي لا يعني ضد القيمة ،بل هو عبور مفاجئ من القيمة إلى ضد القيمة، هو تحويل الخير إلى شر، والجمال إلى قبح، والصدق إلى كذب"، وحسب نظرية التناقض :"يمكن اعتبار الهزلي تناقضا قيميا داخليا"، أي عندما نجد تناقضا بين قيمة ونفيها مثلا: "الحياة هي الحرب"، "الحرية هي العبودية". فالاحساس بالهزلي عند"كوهين" المعبر عنه بالضحك هو الفرح او الانشراح الذي يحدثه رجوع الشخص من الانفعال الى

10.26555/insyirah.v5i2.5481

اللامبالاة أو اللانشراح، هذا الرجوع الذي ينتج بدوره عن تناقض قيمي داخلي أي عن الجمع داخل وحدة بعينها بين دلالتين عاطفيتين متعارضتين تُحيِّد إحداهما الأخرى بالتبادل.

وعلى هذا الأساس فالسخرية تعد رفضا للكلام المباشر، وطريقة للتملص من مسؤولية القول والاحتماء من المعارضات المحتملة. "فهي فن وفلسفة، فن لا يجيده إلا القلائل من الناس، وفلسفة لأنها يجب أن تكون تعبيرا عن موقف أو نظرة، أو فكرة نتوصل إليها بلطف ودقة، باللمع دون الإطالة، وبالتلميح دون التصريح". والمرسِل من خلال خطابه الساخر لا يسعى إلى مجرد إثارة المتعة لدى المرسَل إليه أو إيهامه والتحايل عليه، بل يسعى إلى إقناع متلقيه في السخرية بمشاركته في آرائه اعتمادا على حجج الإمتاع والإقناع. فالسخرية بذلك هي أكثر من مجرد أداة للاسترخاء، بل هي وسيلة حجاج وتوريط، وهي أفضل وسيلة لإظهار عدم التوافق بين المتكلم وخطابه.

لا شك، إذن، أن السخرية تختزن حمولة حجاجية بما أنها تنبني على المناقضة لقيمة أو رأي وتطرح بديلا عنهما من خلال صيغتها الاعتراضية، التي قد تتخلى، أحيانا، عن التعريض والتورية وما شاكلهما ، لتصبح مواجهة تنشد التأثير في مستمعيها والإقناع بأطروحاتها بواسطة قوة الكلمة في بعدها التواصلي. الشيء الذي يدعو إلى التفكير في كيفية اشتغال بنيتها التواصلية الساخرة ومدى حدود أبعادها الإقناعية.

ويمكننا التمييز بين عدة أنواع من السخرية حسب القصديةِ والهدف من فعلها الساخر نذكر منها:

1. **السخرية الضاحكة الهزلية المستهزئة**: وهي الفعل الذي يمارسه عامة الناس بشكل عفوي وقصدي أحيانا ولكن من دون معرفة علمية أو منهجية.
2. **السخرية المتهكمة الوقحة**: ويمارسها من يمتلك الجرأة النقدية، وغالبا ما يمارسها الناقد أو الشاك أو الطاعن، وتطغى عليها صفة الهجومية.
3. **السخرية المفارقة**: وهي التي يمكن أن تكون ضاحكة وقاتمة في الوقت نفسه، وذلك لأنها منهجية وتكشف عن تناقضات الخصم ومفارقاته وتبرز عيوبه من خلال الحجج والبراهين.
4. **السخرية السقراطية** : وهي ما يسمى بجهل العارف، و هي أسلوب معرفي كشفي ابتدعه سقراط كطريقة لتوليد الأسئلة باستعمال الحجج المغلوطة والسفسطة، من أجل كشف عيوب الخصم وجهله.

هـ. السخرية تحد وموقف من الآخر

لقد صاحب التفشي السريع للوباء عبر العالم تغير كبير في العادات ونظم الحياة، حيث فرضت الدول على مواطنيها الكثير من القيود والإجراءات الوقائية والاحترازية للحد من انتشاره وتطويقه، لكن طريقة تنزيل وتطبيق هذه الاجراءات ووجهت ببعض الصعوبات والمشاكل، وأحيانا بالرفض نظرا لأنها لم تهيء لها أرضية صلبة من الحملات التحسيسية والتوعوية الإقناعية المبنية على الحوار والتفاعل والتواصل البناء؛ ولعل منطق سياسة أحادية الخطاب والفرض القسري للبروتوكول الصحي أدى إلى بروز انتقادات ساخرة للموقف تحمل في عمقها كثيرا من الدلالات بألوان مختلفة، وارتفع مستواها بصورة كبيرة في الدول التي تفرض قيودا واسعة على الحريات؛ فتفنن بذلك منتجوها في صياغتها بأساليب إبداعية شتى، أخرجوا فيها طاقة من الكبت لم يستطيعوا تفريغها من قبل. فقد تحول الأمر من مجرد مزحة أو تعليق ساخر من شخص أو قضية إلى تحد ساخر من الذات من الذات ومن المجتمع والحياة سعيا منهم إلى التخفيف من حجم المعاناة وتفريغها في قالب لعبي ساخر يعتمد تقنية الرؤية من الخارج وانفصال الذات عن ملفوظها والضحك على الوضع القاتم.

ويمكننا أن نرجع ذلك في نظرنا إلى عوامل ثلاثة:

1. **عامل ابستيمولوجي:**

وذلك بالنظر إلى نسبة الأمية التي لا تمكن جميع فئات المجتمع من متابعة الخطاب الإعلامي الذي تم إعداده بخصوص الجائحة (من ندوات فكرية، وموائد مستديرة، ولقاءات ...) والتي تركز على لغة تضخيم الأرقام والإحصائيات وتهويل الجائحة وإثارة الخوف والرعب في النفوس، وتبعد كل البعد في مضامينها عن الاحتياجات النفسية للمتتبعين بل تزيد في تفاقم وتدهور وضعياتهم. الشيء الذي جعل فئة عريضة من المجتمع غير مقتنعة بتاتا بوجود الجائحة وإنما التسويق لها هو لأغراض سياسية مما نتج عنه عدم الانضباط للإجراءات الاحترازية التي تنص عليها الحملات التوعوية، بل الاستهزاء منها وإنتاج خطاب نقدي مضاد لها ساهم في إبراز الهوة الحاصلة بين السلطة العليا وشريحة المجتمع أو الجمهور إلى السطح في شكل تحد معارض لقراراتها، بل الطعن والتشكيك في مصداقية خطابها.

2. **عامل ديني:**

10.26555/insyirah.v5i2.5481

ويمكن اعتبار هذا العامل ركنا أساسا في عدم امتثال الغالبية لإجراءات السلامة، وذلك لتجذر القيم الثقافية المرتبطة بالمعتقد الديني والتي ترسخ قيمة المقدر والمكتوب في الثقافة كقيمة عليا لا تستطيع أسطوانة التدابير الاحترازية تغييرها ولا التدخل في تغيير مصيرها " فالمكتوب ليس منه مفر" ، وعليه فإن الإصابة بالمرض يدخل في حكم العقاب أو الغضب الإلهي يسلطه الله تعالى على من يشاء من عباده أو بالأحرى الظالمين منهم؛ وإن عدم الإصابة به مرتبط بالتضرع إلى الله وطلب المغفرة، فهو القادر وكل شيء بيده ولا مجال للبشر للتدخل في تصريف القضاء والقدر.

3. عامل اقتصادي:

وهو الذي ساهمت فيه هشاشة المجال الاقتصادي و افتقار العديد من الأفراد والأسر لدخل قار، بشكل كبير في خرق قوانين وإجراءات السلامة وعدم الالتزام بالنصائح التوعوية، وذلك لاضطرارهم للخروج للعمل بحثا عن الرزق والقوت اليومي في ظل المساعدات الهزيلة التي تقدمها الدولة، إضافة إلى هشاشة المجال العمراني و تفشي السكن العشوائي غير اللائق ، وضيق المساحة في السكن الاقتصادي جعلا من الامتثال لعملية الحجر وفق الضوابط المرسومة أمرا مستحيلا في ظل الاسرة الممتدة أو الأسرة المتكونة من عدة أفراد، بل على العكس ساهم في تزايد نسبة العنف الأسري.

وعليه، يكون الهدف الأساس الذي سعت إليه الحملات التحسيسية والتوعوية من أجل الرفع من مستوى الوعي العام للجماهير وتعزيز مشاركتهم في العملية التنموية لاغيا، لأن الهوة أو الشرخ الحاصل بين الدولة(الحكومة) والجمهور(الشعب) حال دون تحقق هذا الانخراط المجتمعي و قبول الأفكار والأنماط السلوكية الحديثة، بل أكثر من ذلك ساهم هذا الوضع المتأزم في انتشار خطابات السخرية وتحويل الجائحة وما يحيط بها من إجراءات وسياسات إلى مادة للتفكه والتندر وإعلان العصيان المدني والتعبير عن الرفض المقموع في دواخلهم في قوالب فكاهية ساخرة.

فالصورة الساخرة والفكاهة والنادرة لم تعد قاصرة على شعب بعينه في ديباجتها وترديدها لوصف حاله وأحواله، بل صارت فنا برع فيه كل على شاكلته ، وساهمت وسائل التواصل الاجتماعي في رواجه؛ مما فتح المجال واسعا أمام فن الفكاهة في سرد النكت بأنواعها باستخدام الصورة المصحوبة بتعليقات، و التي تأتي غالبيتها ساخرة من السياسات التدبيرية للحكومات والمسؤولين ، ومن الواقع الاجتماعي والاقتصادي المأزوم، مستعينة في نسج بنيتها اللغوية والأيقونية على مبدأ التناقض والمفارقة المستوحى من الواقع التداولي (نكت تتعلق بالعزل الصحي وطقوسه التي فرضت أنماطا غريبة لم نكن نتخيلها من قبل، فهذا

يحكي عن اكتشافه المثير لمزايا تعرفه على عائلته لأول مرة بعد أن فرض عليه الحجر أن يعيش معهم ، وذاك يسرد قصته المثيرة مع أولاده، وتلك زوجة لا تبارح المطبخ، وذاك زوج منبوذ رهن الاعتقال لا أحد يرغب فيه لا الشارع ولا الزوجة ولا الأولاد، وهناك في مكان ما طفل يلهو مع نفسه. ناهيك عن السخرية من انقلاب الأوضاع كأن تقدم دولة فقيرة مساعدات طبية لدولة غنية،أو يقدم عجوز العون لشاب، أو طفل لكهل.....وكل حالة تحمل قدرا من التهكم الذي يخرج في شكل سخرية لاذعة ظاهرها هزل وباطنها يستهدف مساءلة أوضاع خاطئة في السياق السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي وأخذ موقف منها ،في محاولة منها لتغييرها أو خلخلتها، بواسطة قالب فكاهي يكشف عن حالة من الرفض والاستهجان.

و. السخرية استراتيجية لمقاومة الخوف

1. **تجليات مظاهر السخرية على مواقع التواصل الاجتماعي**

أفرزت الاستراتيجيات الوقائية المؤسساتية مقاومات فردية وجماعية تحجب مشاعر الخوف والقلق والرفض التي سيطرت على الكل، وهذا ما تجلى واضحا على مستوى وسائل التواصل الاجتماعي في كل بقاع العالم ، حيث أضحت الحالة الوبائية العالمية قابلة للقراءة و الفهم والتأويل على مستوى مجموعة من التعبيرات الإبداعية(موسيقى- رسومات كاريكاتورية- مقاطع فيديو مصورة لمواقف حياتية يومية- نكت- ...)، استثمرت كأدوات تنفيسية مساعدة على المقاومة والتعبير عما يخالج الذات من أحاسيس وأفكار وآمال تطمح إلى بزوغ انفراج قريب؛ الشيء الذي يعكس حاجة الإنسان الملحة إلى الدعم والمؤازرة والتي يسعى إلى إيجادها انطلاقا من طرحه للنقاش مجموعة من الموضوعات المجتمعية والثقافية التي طفت على السطح في فترة كورونا والتي سببت كثيرا من المشاكل والتوتر النفسي والإزعاج أبرزها:

- أهمية العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية في تحقيق التكافل الاجتماعي،
- التنشئة الاجتماعية على منظومة القيم كالمساواة،
- العدل والتسامح ونبذ العنف،
- ثم العادات والتقاليد وممارسة طقوس اليومي من(تحية وتقبيل، وتبادل الزيارات، وصلة الرحم).

كلها أسئلة ونقاشات تم طرحها بطريقة أو بأخرى للتعبير عن حجم المفارقة والتناقض الذي يشوب تطبيق هذه القيم على مستوى الواقع التداولي في الحياة اليومية، والذي كشف عنه الحجاب بشكل مثير للجدل في هذه الفترة من الأزمة.

إن الاهتمام بالسياقات المنتجة للخطاب الساخر و الانفتاح على عالم التكنولوجيا ساهما بشكل كبير في تحويل السخرية من خطاب نقدي مناسباتي إلى خطاب يومي، يمارس بانتظام وفي تفاعل مع

10.26555/insyirah.v5i2.5481

الأحداث اليومية، ويساهم في إغناء الحوار الاجتماعي، الذي يساعد بدوره في إعادة تشكيل مستمرة لقيم المجتمع ولحقيقة الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ فالنقد والنقد المضاد، والحوارية التي تحدث باستمرار على شبكات التواصل الاجتماعي تساهم حتما في خلخلة القيم الجامدة.

2. بلاغة خطاب الجمهور الساخر

إن الأجواء الخاصة التي فرضتها الجائحة، ونوعية نمط الحياة المقيدة التي بات الناس يعيشون تحت وطأتها لم يكن لهما تأثير على صحة الإنسان النفسية والجسدية فقط ، بل تداعى تأثيرهما على لسان العامة ومعجم المصطلحات التي يستعملونها. فقد دخلت مفردات لغوية جديدة من حقول دلالية أخرى إلى قاموس الاستعمال اليومي، لم يكن لها شيوع من قبل في الواقع التداولي، فالجائحة كظاهرة عابرة للقارات حملت معها لغة خاصة بها، يتماشى معجمها مع الموضوعات والنقاشات التي فرضتها سواء بمعناها الظاهر أو ما تحمله في طياتها من معان مضمرة ومقتضيات تسعى إلى خلخلة هذه المفاهيم وكسر حواجزها .

ونذكر على سبيل المثال بعض المصطلحات التي بصمت المرحلة ورسخت في ذهن الصغير قبل الكبير بما لها وما عليها من حمولة نفسية ثقيلة: العزل، العزلة، الكمامة، التعقيم، الجائحة، العدوى، التباعد، الحجر، لقاح، الفيروس، الوباء، ...إضافة إلى المتلازمات ا للفظية والتراكيب اللغوية المتصاحبة من قبيل: التباعد الاجتماعي، الحجر الصحي، حالة إصابة، حالة سريرية،الحظر الكلي، الحظر الليلي، الطوارئ الصحية، التعليم عن بعد...الخ.

كلها مصطلحات وأساليب تركيبية فرضت سلطتها المعجمية بقوة طاقتها التعبيرية عن الوضع القاتم سواء في معناها الحقيقي أو المجازي، وسرعة انتشارها بين الناس في الأوساط الاجتماعية خصوصا في وسائل التواصل الاجتماعي.

فمن الطبيعي، خلال فترة الحجر الصحي الشامل والتباعد الاجتماعي أن يبحث الفرد عن متنفس له، يفرغ فيه خوفه وقلقه بشكل يجعله يستبدل مشاعر التوتر والطاقة السلبية التي يحملها بمشاعر إيجابية تبعث على الضحك والسخرية من الوضع المأساوي في محاولة للتنفيس عن الضغوطات ، أو للتعبير عن الرفض للإجراءات الاحترازية المفروضة، وعدم الرضا عن أداء الخدمات الصحية و الاجتماعية.، فشاعت بذلك نكت وطرائف وكاريكاتيرات تسخر من وضع الكمامة الصحية وربطها بتكميم الأفواه وحرية التعبير، و كاريكاتيرات لحيوانات تنعم بالحرية بينما الانسان مقيد في قفص، ناهيك عن النكت الساخرة عن معاناة الرجل في المنزل أثناء الحجر الصحي والتعليقات الساخرة حول قيامه بالأعمال المنزلية، أضف إلى ذلك

المواقف الساخرة حول مسألة التعقيم والنظافة لدرجة أن الخضر تغسل في غسالة الملابس ..... وغيرها؛ فتشكيل النكتة وكيفية بنائها يختلف انطلاقا من البيئة الجغرافية والمحيط الذي يحددها، وكذلك الثقافة التي تنتجها والفئة المستهدفة منها سواء العمرية أو الجنس(ذكر أم أنثى)، أو الجهة المعنية(إدارة- وزارة- حكومة...)، مما يجعل مفعولها وتأثيرها أكثر قوة وانتشارا. ويمكن أن نصنف السخرية زمن جائحة الكورونا تصنيفاً ثلاثياً بالنظر إلى زمن إطلاقها وانتشارها: ما قبل الحجر المنزلي الكامل، أثناء الحجر، وما بعده. فربما نجد زيادة في انتشار النكت على وسائل التواصل الاجتماعي أو نقصاً في إحدى هذه المراحل الثلاث، كما يمكننا أن نلاحظ أنها تتراوح بين القتامة والتفاؤل في قالب لعبي يمزج بين الجد والهزل كحل استثنائي تحايلا على وضع استثنائي رغبة في خلق واقع مأمول يبدد المخاوف ويجلي الأحزان.

فالسخرية تعتمد على قيم مشتركة أو قيم أخلاقية في نقدها للآخر، وتستعمل في غالب الأحيان تقنيات لغوية وآليات بلاغية تحمل طابع المفارقة الذي ليس إلا طابعا حجاجيا؛ يقول بيرلمان وتيتيكا: " إذا استخدمنا السخرية، هذا يعني أن هناك ضرورةً لوجود الحجاج، ذلك أن ظهور التعارض (المفارقة) ما هو إلا طابع دافع لقمة الحجاج" (ميير، 2008)؛ فهي آلية تضطلع بوظيفة أصلية في الخطاب، هي دورها الحجاجي، إذ يسعى الساخر من خلالها إلى إقناع متلقيه بعكس ما يقول، بقوله عكس ما يفكر فيه ، ذلك أن الساخر يتعامل في الحقيقة مع حجاج غير مباشر: "بالسخرية نريد أن نُسْمع عكس ما نريد قوله".

هذا التصور للسخرية يفسر بشكل متأنق ومضبوط فعل "اللُّعبة المزدوجة" أو "الازدواجية التلفظية"، فنحن عندما نسخر فإننا نميز جيدا خطابنا كفعل حجاجي، ولكننا نحاجج على مستويين (الملفوظ والتلفظ) بحيث إن كلا منهما يورط ويفند الآخر (يناقضه). و عليه فإن الملفوظ الساخر يفترض بواسطة محتواه وجود معيار بموجبه يمكن الاختيار بين أحد المستويين المتناظرين، بحيث نستعمل تلفظا بخصوص تلفظ آخر داخلي أو ضمني، والذي نحاول أن نزيل الاعتبار عنه؛ فهي بكل بساطة تسمح لنا بالتحاجُجِ دون أن نتحمل نتائجه: أي دون الوقوع في الانغلاق التناظري ولا تحمُّلِ العواقب التي يسببها عدم الانسجام والتلاؤم، فالساخر يمكنه دائما الاحتماءُ وراء إحدى القيمتين الحجاجيتين والتملص من كل إقرار مُحْتَمَل، ولا يمكن اتهامه بعدم الانسجام، فتلفظُه يكون ملائما جدا بالنسبة للسياق الذي يقدمه فيه.

فالسخرية على هذا الاعتبار، إذن، وسيلة للتملص من قاعدة الانسجام مع التظاهر بتطبيقها. يقول بيرونضوني:" إنه ليس مهما أن تكون السخرية أخلاقية morale أو إصلاحية، المهم هو أنها عبارة عن مناورة لها وظيفة دفاعية بالأساس ضد القواعد والضوابط. إنها تظهر كحيلة تسمح بإبطال خضوع أو امتثال

10.26555/insyirah.v5i2.5481

المتكلمين لقواعد التعقل واللياقة الاجتماعية، فتكتسب بذلك بُعْدا دفاعيا، وتُستعمَل لمقاصدَ وأهدافٍ جدالية، وهي بذلك أبعد من أن تكون سلاحا هجوميا، بل إنها تشكل سلاحا دفاعيا ضد كل أشكال القواعد والضوابط والمعايير سواء كانت لزومية أو نوعية، وردا أو إجابة عن أشكال القمع الفاشي الذي يصادر حرية الرأي؛ فالسخرية بذلك تظهر في نظام الكلام كآخر ملاذٍ وملجإٍ للحرية الفردية.

الخلاصة

لقد عرفت السخرية بجميع أشكالها رواجا كبيرا ولقيت إقبالا من لدن الجمهور فأصبح كل شخص بمثابة جهاز إعلامي في حد ذاته، فتكفي إذاعة ونشر صور لكبار المسؤولين يضعون على وجوههم كمامات وفي أياديهم قفازات واقية، أو هم في الحجر الصحي، لإطلاق وابل من النكت السياسية الساخرة التي لا تخلو من دلالات عميقة تنم عن ارتفاع مستوى الوعي المجتمعي والنقد السياسي، وتبدد الكثير من الفجوات وتلاشي تقريبا الهوة القائمة بين القمة والقاعدة.

فالسخرية بجميع أصنافها التعبيرية تبقى متنفسا لكلمات ثائرة في قالب لغوي لعبي مقنع ساخر من واقع معيشي مأزوم يخفي الجانب المظلم فيه، تسعى إلى تشريحه وكشف تناقضاته وتغييره. ومهما أظهرت السخرية من معاني الهدم والتشكيك وأتقنته في أساليبها، إلا أنها تبقى أسلوبا يحمل في باطنه معاني البناء والترسيخ ويهدف إلى الإصلاح والتغيير.

قائمة المراجع

العمري، محمد،(البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول)، افريقيا الشرق، 2012 ، ط2

الهوال، حامد عبده،(السخرية في أدب المازني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1982

باومان، زيجمونت (الخوف السائل)، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ،2017

كوهين، جون (نظرية الأدب في القرن العشرين) ،ترجمة محمد العمري ، ،أفريقيا الشرق 2005،

عبيس، رائد، (فلسفة السخرية عند: بيتر سلوترديك)، منشورات الاختلاف، الطبعة1، 2016

مفضل، محمد (السخرية في الثقافة الرقمية)، دار أبي رقراق 2014

طه، نعمان ، ا(لسخرية في الأدب العربي حتى نهآية القرن الرابع الهجري)

شوقي، ضيف، (الفكاهة في مصر)، سلسلة اقرأ، دار المعارف مصر،ط3، بدون تاريخ

محرز سامية، "المفارقة عند جيمس وإميل حبيبي"، مجلة عيون المقالات، عدد2 سنة 1986

Ducrot Oswald, Le dire et le dit, éditions de Minuit, Paris, 1984.

Dan Sperber et Deirdre Wilson. « Les ironies comme mentions » in poétique n°36.1978

Alain Berrendonner, Eléments de Pragmatique Linguistique, Edition Minuit, 1981

10.26555/insyirah.v5i2.5481